الفصل الحادي والثمانون

ويوجد في الشرق شعوب أخرى تعيسة، يبغضهم الرب، وهم أخساء يستحقوق الازدراء، ويدعى بعض هؤلاء باسم «الايسينيين*»، وهم انحدروا من أصل يهودي، ويرى بعضهم أن الحياة بعد الموت مسألة إيمانية، ويثقون أنهم سيحرزون الشيء نفسه مرة أخرى، وهم لايتزوجون خشية من فجور النساء، الذين يرون أنهن لم يكن قط مخلصات لرجل واحد، ويتزوج بعضهم الآخر، لكن لا يتحدثون مع زوجاتهم عندما يكن حوامل، ليظهروا أنهم اتصلوا بهن فقط من أجل الحصول على الذرية، وليس من أجل المتعة، ويقولون لاتتلقي الأرواح بعد الموت لاعقوبة ولاتمجيد، لكن وهم يسعون ضد هذه الطوائف، يبدد هؤلاء القوم المفتتنون جهودهم.

ومن هؤلاء الايسينيين طائفة الحشيشة المتقدمة الذكر، وقد قيل بأنها الطائفة الرئيسة بينهم، وهم يحتفظون بجزء من الأبجدية اليهودية، ويستخدمون مزيجاً من الحروف العبرية والكلدانية.

وآخرون هم الصدوقيين، الذين لايؤمنون ببعث الموتى، وهم قد تلقوا أسفار موسى، لكنهم لم يفهموها، وقد وبخهم الرب في الانجيل قائلاً: «تضلون إذ لاتعرفون الكتب ولاقوة الرب» (متى: ٢٢/ ٢٩)، وبعدما اقتبس سلطانه من أسفار موسى بقوله: «أنا رب إبراهيم، ورب اسحق،

---

*— الايسينيون: طائفة يهودية نشطت بشكل رئيسي في دير قمران على البحر الميت، وقد زالت هذه الطائفة مع سنة ٧٣م، وتعرف العلماء مجدداً عليها من خلال المخطوطات التي كشفت حديثاً في خرائب وكهوف دير قمران، ومزج المؤلف المعلومات وأخطأ كثيراً، ويرجح أنه أراد طائفة الحشيشية الاسماعيلية، وهو لم يفقه عقائد الاسماعيلية، واختلط عليه الأمر، وهذه لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة.

ورب يعقـوب»، أفحمهم وأنهى كـلامـه على هذه الصـورة بقـوله: « هـو ليس رب الأموات، بل رب الأحياء» وآخرون هم السامرة الذين يعتمدون الأبجديـة العبرية مثـل اليهود، وقـد تقبلوا أسفـار موسـى الخمسة فقـط (البنتـاتوخ)، ولم يعترفـوا بالأنبيـاء الآخريـن أصحاب الأسفـار اليهوديـة المقـدسة الأخـرى، وعنـدما اقتـاد شلما نصر ملـك آشـور سبي الأسبـاط العشرة من بني اسرائيـل ونفاهم، بعث بـالسامرة المتقدم ذكـرهـم إلى بلاد السـامرة لكـي يقـوموا بفـلاحـة الأرض في مكان اليهـود، وعنـدما تلقـى السامـرة كلمة الـرب بوسـاطة تبشير الـرسل، استمـر بعضهم بـالتمسك بـأخطـائهـم القـديمـة، ولهذا لعنهـم الرب وعـاقبهـم بـالـرحـم العقيـم وبالصـدور الجافة، ولعـن كذلـك تماما هـذه الأرض الشريرة والفـاسدة، وقضى عليها بالنار الأبدية مـع الجفاف والقحط، ولهذا قيل لايوجد منهـم أكثر من ثـلاثمائة انسان حي يمكن العثور عليهم في جميـع أنحاء العالم، وتقبل آخـرون منهم أسفـار موسى والأنبيـاء وجميع العهـد القديـم، لكن فقط بمعنـاه الحرفي، وهؤلاء هم الـذين قال القديـس بولص ضـدهـم: « لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي» (كورنثه: ٢/ ٣/ ٦)، ويقول الرب في الانجيل: « الـروح هو الـذي يحيى، أما الجسـد فلا يفيـد شيئاً» (يـوحنا: ٦/ ٦٣)، ولهذا مـن الـواضح أن الكتـاب المقـدس ليـس له فـائدة عنـد اليهود، لابل إنه يؤذيهم كما قال النبـي داود: «لتصر مائدتهم قدامهم فخاً ولـلآمنين شركـاً.لتظلم عيـونهم عـن البصر وقلقـل متونهم دومـاً. صـب عليهم سخطك وليدركهم حمو غضبك. لتصر دارهـم خراباً وفي خيامهم لايكـن ساكـن» (المزامير: ٦٩/ ٢٢— ٢٥)، وتعني هنـا كلمة «مـائدة » الكتـابات المقـدسـة، هذا ومـازال الجزء الأكبر منهـم يسكن منعـزلاً في ذلـك الجزء مـن الشرق، حيث يحكـى أن الاسكنـدر ملـك مقدونيـا قـد حجـزهـم دون جبـال قزويـن، ومن هنـاك سوف يجلبـون في أيام المسيـح الدجال، ويقـادون عائدينَ إلى الأرض المقدسة، وبين جبال قـزوين تلك وبحر (قـزوين) حبس هذا الاسكنـدر نفسه قوم يـأجوج ومأجوج الـذين

لايمكن تعدادهم لأنهم مثل رمال البحر، لأنه كره عاداتهم البغيضة بأكلهم لحوماً بشرية ولحوماً نيئة لحيوانات نجسة.

وفئة أخرى من اليهود، الذين كان آباؤهم قد صرخوا: «دمه علينا وعلى بنينا»(متى: ٢٧/ ٢٥) قد تشتتوا في جميع أنحاء العالم، وإلى حيثما هبت الرياح من السماء، « تراهم في كل مكان عبيداً، ودافعين للجزية»، تحولت قواهم إلى رماد حسب كلمات النبي إشعيا، لأنهم أصبحوا في الحقيقة ضعفاء غير محبين للقتال مثل النساء، ولقد قيل بأنهم يحيضون وتتدفق منهم الدماء كل شهر، ولقد ضربهم الرب في الأعضاء الخلفية، وجعلهم في عار دائم، فمنذ أن قتلوا أخاهم هابيل جعلوا هائمين ومشردين على وجه الأرض مثل قابيل الملعون، الذي له رأس مرتعش، أي قلب خائف ، يمضون أيامهم ولياليهم في رعب، ويعيشون في ظل الشعور بالخوف من الموت، ويكرههم المسلمون الذين يعيشون فيما بينهم ويحتقرونهم أكثر من المسيحيين، ولما كان الجشع المقيت للأمراء المسيحيين جعلهم يتساهلون معهم في سبيل الربح الدنيوي، وسمحوا لهم بالاحتفاظ برجال مسيحيين سجناء لديهم، وجعل المسيحيين يعانون من السلب من قبلهم بوساطة الربا الذي يمارسونه والذي لايطاق، أما بين المسلمين فيعملون بأيديهم بالحرف الأسوأ والأشد قساوة، وهكذا هم أقنان وعبيد للمسلمين ويعانون ليعيشوا معهم في أدنى مرتبة من الحياة، ومع هذا لايتعرضون للقتل على أيدي المسلمين مثلما يتعرضون على أيدي المسيحيين، لأن الرب يبقيهم للوقت المناسب مثلما يبقي جزع شجرة من الغابة لكي يحرق في الشتاء، ومثل كرم خبيث حتى النهاية، أي نهاية الدنيا، عندما يتم انقاذ بقايا اسرائيل، لكنه تحول الآن إلى المرارة، وهو يعطي فقط عنباً وحشياً، وهو ربما سيعطي ثماراً ثمينة وعنباً حقيقياً، وهكذا قال النبي داود حولهم: « الرب سوف يريني رغبتي في أعدائي. لاتقتلهم لئلا ينسى شعبي، تيههم وشردهم». الخ (المزامير:

٥٩/ ١٠— ١١) لأنهم يذكروننا بموت المسيح، ولقد تلقينا شهادتهم من الكتابات المقدسة حول الأشياء التي صنعها الرب من أجلنا، حسبما يقول دانيال: «يُقطع المسيح، وليس له، وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس» (دانيال: ٩/ ٢٦)، ويقول داود: « بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم» (المزامير: ١٨/ ٤٥)، هذا ولايوجد أي نبي لم يقدم لنا شهادة ضدهم، وقلب هذا الشعب أعمى إلى حد أنه يلتمس طريقه ويسلب وسط النهار، وكأنه في الظلام، ذلك أن آذانهم صماء، وعيونهم مغلقة، وكذلك لايفهم هذا الشعب الأحمق والمعاند، ولايعرف المدى المرعب الذي أغضب فيه الرب ضده بموت المسيح، لابل إنه قد أغضب الرب حتى قبل موت المسيح، بطرق مختلفة، منها عبادة الأصنام، واقتراف لمنكرات أخرى، ولهذا ألقى بهم الرب في أيدي أعدائهم، ليخدموهم أحياناً لمدة عشر سنوات، وأحيانا لمدة عشرين، وأحياناً أخرى لمدة أربعين، وذلك حسبما نجد في سفر القضاة، فقد مكثوا في احدى المرات في السبي في بابل لمدة سبعين سنة، وأطلق الرب بعد ذلك سراحهم، لكنهم بعد ما قتلوا الرب يسوع، لم نعد نسمع أنهم عبدوا الأصنام، لكنهم وقعوا في السبي لمدة تزيد على ألف سنة، ولم ينالوا بعد عفو الرب ومغفرته. ولكن كما صلى المسيح للرب قائلاً: « أما أنت فارحمني وأقمني فأجازيهم» (المزامير: ٤١/ ١٠)، وهكذا نال صلاته من الرب الآب، ومثل هذا كان قد تنبأ لهم قبل وقت طويل، قائلاً باسم الرب شخصيا: «الانتقام لي وأنا أجازي» (التثنية: ٣٢/ ٣٥)، وقال ثانية: «فيصيبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تقترفون الشر أمام الرب حتى تثيروا غيظة بما تجنيه أيديكم» التثنيه: ٣١/ ٢٩).

وتحدث النبي دانيال عن هذا السبي الأخير بهذه الكلمات: «وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس، وانتهاؤه بطوفان، وفي نهاية الحرب خراب قضي به. ولسوف يوقف الذبيحة والتقدمة. وفي الهيكل سيكون

هنـاك رجاسـة الخراب، وسيستمر هـذا الخراب حتـى الاكتمال والنهايـة» (دانيال: ٩/ ٢٧).

الفصل الثاني والثمانون

ومنـذ بدايـة استرداد الأرض المقدسـة وانقاذهـا، بات مـؤكداً بشكـل صحيح مـن قبل الـذين عـرفوا أوضاعهـا بشكل دقيـق، وعرفـوا تبدلات تقدمهـا وسعدها، ونظـروا بعناية نحـو ازدهارها وانتكـاساتها، أنه مـا من جنس من البشر، وما مـن وباء كان له قوة الأذى عليها أكثـر من رجالها: المجـــرمين والآثمين، والأشرار، وغير التقـاة، والمدنسين، واللصـــوص، والسارقين، وقتلة النفـس، وقتله الأباء، وحانثي اليمين، والـزناة، والخونة، والقراصنـة — أي لصوص البحر— والـداعريـن، والسكيرين، والمغنين، ولاعبي النرد، والمهرجين، والممثلين، والرهبان المرتـدين، والراهبات اللائي مثل المومسـات العموميات، والنسـاء اللائي تخلين عن أزواجهـن ليعشن في بيوت الـدعارة، أو الـرجال الذيـن هربـوا من زوجـاتهم الصحيحات واتخذوا أخريات بديلاً عنهن، ولقـد عبر مثل هؤلاء الناس الأشرار الذين كانـوا في الغرب، البحر المتـوسط، واتخذوا ملاذاً لهم في الأرض المقـدسة، حيث غيروا المناخ فقـط، لكنهم لم يغيروا أخلاقهم، ولقد دنسوهـا بأعداد لاتحصى مـن الجرائم، والأفاعيـل المخزيـة، لأنهم لم يخافوا لا الـرب، ولم يقيمـوا أدنى اعتبـار للناس، بـل أذنبـوا دونما خجل، واقترفـوا ما اعتـادوا عليه من آثـام، وكلما ازدادوا وقاحة كلما ابتعدوا عـن معارفهم وأقربـائهم، كما أن السهولـة التي جعلتهـم ينجون مـن العقاب زادت وقـاحتهم على اقتراف الإثم، وأطلقـوا العنان لفسوقهـم، ذلك أنهم بعـد اقترافهم لشرور عظيمة يقومـون إما بنكران المسيح، والالتحـاق بالجيران من المسلمين، أو يعتلـون ظهـر غليـون أو سفينة، ويحملـون أنفسهـم إلى جـزر البحـر، أو يتخذون ملاذاً في واحد من بيوت الكهنـة النظاميين، ومثل هؤلاء الرجال

الهاربين من العدالة تجدهم في كل مكان على طرقاتهم، حيث أن الامتياز المخرب يحمي فاعلي الشر، وهكذا يهربون من تسديد المقتضى عليهم، وينجح بعض الرجال الدمويين وأطفال الموت بعد القبض عليهم في بلادهم وهم متلبسون بجرائمهم، وبعد ما يحكم عليهم بفقدان عضو من الأعضاء أو الشنق، هؤلاء ينجحون عن طريق الوساطة أو الرشوة، حسبما جرت العادة في الحصول على حكم بالنفي المؤبد إلى الأرض المقدسة دونما أمل بالعودة. وصار هؤلاء الناس متجنسين في الأرض المقدسة، ليس عن طريق التوبة بل بالقوة، ولقد اعتادوا على تأجير مساكن الحجاج بأسعار معتدلة، والقيام بخديعة الغرباء الأبرياء بكل طريقة يمكنهم فعلها، ينتزعون المال منهم بالحيلة لأجل الديون التي لايمكنهم الوفاء بها، وهكذا نجدهم يعيشون حياة بائسة بنهب ضيوفهم وسلبهم، ولقد اعتادوا على إيواء القتلة واللصوص، ولاعبي الميسر، والعاهرات العموميات، على أمل الحصول على مرابح أعظم، وهم يدفعون جزية سنوية للرجال الأغنياء والأقوياء حتى يتمكنوا من الحصول على حمايتهم، ودعمهم في آثامهم المتقدمة الذكر، وكل هذا في سبيل الشرور الأعظم واللعنة والخزي لكلا الفئتين: لأن الذين حصلوا مقابل دفع مبلغ كبير من المال على امتياز الحفاظ على المومسات ولاعبي الميسر، يستخرجون المزيد من الأموال من هؤلاء المومسات والمقامرين، هذا وإن الذين يتسلمون إيجار المومسات، معاندة منهم لأوامر الرب، يتولون بأنفسهم مشاركتهن في جميع ذنوبهن وآثامهن، ذلك أن الشريك في الجريمة يتلقى العقوبة نفسها التي يتلقاها المجرمين، وذهب بعض الناس من ذوي العقول الخفيفة، للقيام بالحج إلى الأماكن المقدسة، ليس بدافع التقوى، بل بدافع الفضول ومحبة الأشياء الجديدة، أي أن يرتحلوا إلى بلاد غير معروفة، ويمكنهم مع جهد كبير أن يبرهنوا على صحة الحكايات الغريبة الاعجازية التي سمعوها عن الشرق، للناس الجاهلين، وفي الحقيقة صنع الرب الكثير من الأعمال الاعجازية المدهشة في هذه

المناطق، التي تجعل العقلاء وذوي التفكير السليم من الناس ينبرون نحو حمد الرب وتمجيده، حتى أن القديس براندان Brandan(٤٨٤— ٥٧٦م) أبحر حول البحار لمدة طويلة (سبع سنوات) حتى يرى عجائب الرب في الأعماق، غير أن ذوي العقول الخفيفة، والرجال ذوي الفضول حولوا إلى حماقات هذه الاشياء التي تفضل الرب وتنازل بالبرهنة بها على قوته ولإظهار حمده وشكرانه، ورأينا أنه من المناسب إضافة قليل من هذه الأشياء إلى الكتاب الحالي، لعل ذلك يكون نافعاً إلى القراء النبهاء والمتيقظين.

الفصل الثالث والثمانون

غالباً ما تحدث زلازل خطيرة ومرعبة، ليس فقط في مملكة القدس بل أيضاً في البلدان من حولها، خاصة على شواطىء البحار، وذلك بسبب عنف الرياح، التي تتشكل من هياج الأمواج وقوة اندفاعها في الأماكن الكائنة تحت الأرض وفي الكهوف في الأرض، وبما أن الهواء المضغوط والمندفع لايجد فتحات متيسرة يقوم بهز الأرض بضربات قوية ومقلقلة، وإذا لم تستطع الأرض مقاومة هذا الضغط، تنفجر منفتحة، ويكون هناك خليجاً عظيماً، ولهذا يتم أحياناً ابتلاع بعض المدن ونزولها إلى الهاوية، وعندما لاتنفجر الأرض، تهتز بمثل هذه الضربات العنيفة الناجمة عن الرياح، مما يجعل مدناً تنهار فجأة هي وأسوارها وأبراجها والأبنية الأخرى فيها، وتفاجىء الناس، وتأخذهم على حين غرة، فتغمرهم وتقهرهم، وبناء عليه فإن الناس العقلاء في هذه المناطق، الذين لايعرفون الساعة التي ستهب فيها العاصفة سالفة الذكر عليهم، يترقبون ذلك بكل يقظة، ولا يهملون إعداد أنفسهم للموت، غير مفترضين القدرة على العيش في وضع لايتجرأون فيه على الموت، وكان بمثل هذا النوع من الدمار الشامل قد دمرت مدينة صور، بعدما

أصبحت في أيدي اللاتين، فلقد دمرت كلها تقريباً مع جميع سكانها. وفي الوقت الذي يحدث فيه البرق والرعد في الغرب أثناء الصيف، يحدثان في الأرض المقدسة أثناء الشتاء، لأن الأمطار لاتهطل في الصيف فيها، أو نادراً مايحدث ذلك،لكن غالباً ماتتساقط الأمطار لمدة ثلاثة أيام أو أربعة معا،وينتج عن هذه الأمطار فيضانات مياه عظيمة،مثل طوفان آخر يغرق الأرض كلها ويوحلها،ونادراً ماتتساقط الثلوج في الأرض المقدسة،باستثناء على قمم الجبال العالية،كما في لبنان،وفي خلال الصيف كله،لاسيما في أوقات الحر الشديد أيام الشعرى dog-days ،وفي شهر آب،يجلب الثلج البارد الى القدس، ويحمل إليها خلال رحلة يومين من لبنان، وعندما يمزج هذا الثلج مع الخمرة يجعلها باردة مثل الثلج، ويحفظ هذا الثلج بتغطيته بالقش،حتى لايذوب بحرارة الشمس أو بدفء الهواء.

الفصل الرابع والثمانون

وجدت الينابيع التي تتدفق بماء عذب في كل من البحر والبر،وواحد من هذه الينابيع في السامرة(نابلس)،قيل بأن مياهه تتبدل الى أربعة ألوان مختلفة في السنة، وهذه الألوان هي:الأخضر،ولون الدم،ولون الصدأ أو لون الوحل،واللون النقي تماماً، وهكذا توفر تغييراً مدهشاً ومبهجاً للعيون أن تراه ،ولايرسل نبع سلوان مياهه العذبة كل يوم من القعر دونما انقطاع،بل يرسلها على دفعات،لمدة ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع،وهناك في قرب جبل لبنان،بين بلدتي عرقة ورفنية(بارين،أو بعرين) نهر سريع الجريان وكثير المياه يدعونه نهر السبعتا كال sabbatical (أي نهر السبعة أوفوار الدير) لأنه لايعطي أية ماء خلا ل ستة أيام من الاسبوع،وتتدفق المياه منه فجأة في اليوم السابع وتجري في مجراه الجاف، ويصنعون في منطقة صور وعكا الزجاج النقي جداً،ببراعة حرفية،ويتم

التصنيع من رمال البحر، أي أن تقول من رمل البحر وحصبائه.

×× ×× ××

الفصل الثاني والتسعون

وهكذا سلم الرب شعبه تماماً للسيف ،وكان حانقاً جداً على ورثته، وهكذا صار أعداؤنا بشكل تام هم الرأس ونحن الذنب،وهكذا أخذوا منا بالقوة ليس فقط أرض الميعاد،بل جل المناطق، والمدن،والقلاع من تخوم مصر حتى الجزيرة،وتركوا لنا من مدن شاطىء البحر مدينتين فقط هما:صور وطرابلس،وذلك بالإضافة الى انطاكية،وعدد قليل من الأماكن الحصينة،مثل قلعة تعرف باسم قورس،قرب أنطاكية وحصن (الأكراد) والمرقب،والحصن الأبيض (برج صافيتا) وعرقة ، وبرج طرطوس ، وقلعة نفين (رأس شكا) في منطقة طرابلس وسقطت جميع المدن والأماكن الحصينة في الداخل في أيديهم الآثمة ، وكانت البداية التعيسة بالنسبة لهذه الكارثة ، والمحنة المريرة ، والبلوى ، مع كونتية الرها : لأنه بعد وفاة جوسلين الشجاع والحكيم ، الذي كان كونت الرها ، قام ابنه جوسلين الثاني الذي انحرف عن طريق والده في المكانة والشرف وأسلم نفسه الى الفسوق المشين ، وأهمل الدفاع عن مدينة الرها ، ففقدها لصالح زنكي صاحب الموصل ، التي هي عاصمة ومطرانية اقليم آشور ، فقد قام زنكي بحصار المدينة ، وشق طريقه بالقوة الى داخلها من خلال الأسوار واستولى عليها ، وبعد هذا أنزل انتقام السماء حكمه على جوسلين المتقدم الذكر ، وقد أخذ أسيراً من قبل المسلمين ، ومات بشكل تعيس ، حيث جاع حتى الموت في السجن في حلب ، وبناء عليه قامت زوجته بالتنازل عما بقي لها من مناطق لصالح امبراطور القسطنطينية ، مقابل دخل سنوي وأرسل الامبراطور حشداً جباراً من الاغريق ، ووعد أنه سوف يدافع عن البلاد ضد المسلمين وفرح نور الدين بن زنكي

المتقدم الذكر ، لدى تراجع اللاتين ، مع أنهم كانوا قلة ، واكترث قليلاً بحشد الاغريق غير المولع بالحرب ، والذي كان يعرف أنه كان ضعيفاً وجباناً ، وبناء عليه أدخل المنطقة كلها تحت سلطانه ، وقتل بعضاً من رجال جيش الاغريق الغرير وأسر البقية، وقام نور الدين هذا نفسه أيضاً بحصار قلعة اسمها حارم ، كان تعود بملكيتها الى امارة انطاكية ، وتبعد مسافة عشرة أميال عن مدينة انطاكية ، وقتل في تلك الآونة ريموند أمير انطاكية في معركة ، وكان ابنه بوهيموند وخليفته في حكم الإمارة أسيراً في أيدي المسلمين، وبسهولة اقتحم نور الدين القلعة ، وقد واجه القليل من المقاومة ، ومثل هذا انتزع من ايدينا بالقوة مدينة بانياس وأضافها الى ممتلكاته، لأن عموري ملك القدس كان آنذاك بعيداً متغيباً في مصر ، ومنذ ذلك الحين بدأت قوانا تنهار ، ومع هذا دافع شعبنا عما بقي لنا من أرض ، ما دامت مملكتي مصر ودمشق باقيتان في أيدي حكام مختلفين ومتنازعين ، لكن عندما ـ بسبب آثامنا — قامت المملكتان المتقدمتا الذكر بمضاعفة قواهما عن طريق الاتحاد تحت قيادة سيد واحد، بدأت مملكة القدس التي قامت فيما بينهما تعيش في فوضى واضطراب عظيم ، وجعل شيركوه — وكان واحداً من القادة لدى نور الدين — من نفسه بالقوة سيداً لمملكة مصر ، وتركها عند موته الى ابن أخيه صلاح الدين وكان صلاح الدين هذا حكيماً في تصرفاته، وبارعاً في السلاح والحرب بعيد النظر ، وحازماً في عمله ، وكان كريماً جداً، ومبسوط اليدين ، ليس فقط لشعبه، بل أيضاً لبعض من شعبنا، الذي جذبهم إلى جانبه بالهدايا والوعود، ويعلم العالم كله كم من الأذى ألحقه بنا ، مثل سوط عذاب الرب ، وقد دمر الصليبيين ومزقهم إرباً إرباً ، لأنه بعدما قام هذا المتقدم الذكر بقتل (اقرأ : بعزل) مولاه خليفة مصر بشكل خياني (كذا) ، استولى على مملكة دمشق ، وانتزعها من مولاه الطفل الذي

كان يعيش في حلب ، وهو ابن نور الدين الذي كان الآن متوفى ، ذلك أنه كسب الى جانبه أعيان المملكة إما بوساطة الهدايا ، أو أرعبوا بوساطة العنف ، حتى يوافقوا على خيانته ، وقد مضى في سبيله للاستيلاء على بعض المدن الغنية العائدة للمولى المتقدم الذكر ، مع أنه كان شخصياً وأبوه من قبله عبيداً له، ومن هذه المدن : حماه، ومنبج، ومدينة حمص، التي تعرف بشكل عام باسم كاميلا، وقيسارية الكبرى، وكان بعد وفاة نور الدين قد وقع الابن المتقدم الذكر صاحب حلب ، تحت سيطرة عمه، صاحب الموصل، بموجب حق الوراثة، وقد انتزع صلاح الدين من صاحب الموصل المتقدم الذكر بالقوة ليس فقط حلب، بل منطقة الرها أيضاً، والبلاد جميعها حتى الفرات ، وكذلك مدن الجزيرة الجليلة مثل الرها، وجعبر، وجميع البلاد تقريباً ، وشكل قيامه ونجاحه رعباً بالنسبة لشعبنا وخطراً واكتئاباً ، خاصة وأن المسلمين كانوا في البداية — عندما قدم اللاتين الى البلاد أولاً— غير بارعين في الحرب ، وكانوا يذهبون نحو القتال وكأنهم غير مسلحين ، لا يحملون شيئاً سوى القسي والنشاب،ومن خلال الممارسات المستمرة ، والمواجهات المتوالية مع شعبنا في أرض المعركة، تعلموا النظام العسكري، وقلدوا اللاتين في استخدام الدروع والخوذ، والرماح والسيوف والترسة، ولزيادة مصائبنا وتتويجها آلت مملكة القدس ووقعت في يدي واحد لم يكن من ذرية الذين تولوا تحرير أرض الميعاد، ولهذا كانت هناك صراعات كبيرة وانشقاقات بين بارونات المملكة .

الفصل الثالث والتسعون

وكان أول اللاتين الذين تولوا الحكم في مملكة القدس هو غودفري، المحبوب من السماء، الذي حقق الرب من خلاله وصنع

واحدة ، وقد ألحق الهزيمة أثناء القتال بالقائد الأعلى لدى سلطان مصر، مع عدد لا يحصى من الكفار، وبعدما غادرت روحه الجسد، خلفه أخوه بلدوين كونت الرها، في حكم المملكة، فكان الملك الأول للقدس، لأن أخاه رفض ارتداء التاج الملكي في البقعة التي ارتدى فيها معلمه تاجاً من شوك، وتمكن بلدوين هذا مع مائتين وستين فارساً وتسعمائة من الرجالة، من الحاق الهزيمة بالقائد الأعلى لدى خليفة مصر، الذي قاد أحد عشر ألفاً من الخيالة وثلاثين ألفاً من الرجالة ضده، وقتل بلدوين القائد الأعلى نفسه مع خمسة آلاف من قومه، بينما أخذ بعضاً من البقية أسرى، وتمكن بعضهم من انقاذ أنفسهم عن طريق الفرار، وتمكن في معركة أخرى مع قوة صغيرة جداً من هزيمة حشد كبير من الناس من عسقلان ومن مصر، واستطاع في المعركة الثالثة ومعه خمسمائة فارس وألفين من الرجالة، أن يهزم عشرين ألفاً من المصريين، وقد قتل أربعة آلاف منهم، كان بينهم صاحب عسقلان، وأرغم البقية على الفرار . ولقد حكم لمدة ثمانية عشر عاماً ثم مات. وكان خليفته، والملك اللاتيني الثاني للقدس، بلدوين بورغ، وكان من أقربائه، وهو الذي التحم في السنة الثانية من حكمه بمعركة ضد (ايل) غازي أحد امراء الأتراك الأشداء جداً ، وكان بلدوين وقتها على رأس سبعمائة فارس.

وهزم غازي هذا في القتال، وكان يقود حشداً لا يحصى من الأتراك، وقد قُتل أربعة آلاف من قومه، ووقع بالأسر عدد كبير، وهو نفسه نجا بكل صعوبة مع البقية، وهزم في المعركة الثانية ، وهو على رأس ألف ومائة فارس وألفين من الرجالة، ملك دمشق، الذي قيل كان معه خمسة عشر ألفاً من الفرسان، الذي قتل منهم ألفين، وأسر عدداً كبيراً ، وجرح عدداً كبيراً جداً، وهرب البقية مع قائدهم، وسقط من جانبنا أربعة وعشرون. وفي المعركة الثالثة هزم هذا الملك العسقلانيين مع المصريين

الذيـن جاءوا لمساعـدتهم، وقد سحق في المعـركة الرابعـة طغتكين، ملك دمشـق، وقتـل ألفين من الأعـداء ، وخسر فقـط أربعـة وعشرين فـارسـاً وثمانين من الجنود الرجالة . ولقد حكم لمدة ثلاثة عشر عاماً، ثم مات.

وكان خليفتة على العـرش فولك، كونـت أنجو، ولا مانس وتـور، وهو الذي زوّجـه الملك المتقدم الذكـر ابنته الكبرى ميليساند، وقـد خاض معركة قاتـل فيها قرب أنطاكية ضد حشـد لايحصى تعداده من الترك، الذين تقـاطروا من منطقة الخليـج العربي، ونال نصراً مدويـاً، حيث قتل ثـلاثة آلاف منهـم، وأخـذو عـدداً كبيراًمن الأسرى وأرغـم البقيـة على الفرار ، وقد حكم لمدة أحد عشر عاماً ، لكن عندما كان يصطاد أرنباً بـرياً قـرب عكـا، تقنطـر فرسـه معـه، وهلـك بشكل مفـاجـىء ومحزن ومأساوي، وقد خلف من بعده ولـدين: كان الأكبر بينهما بلدوين الذي خلفه على العرش، ثـم عموري، ونال بلدويـن هذا في السنة الثالثـة من حكمـه وهـو على رأس جيشـه كلـه، نصراً على عـدد مـن نبـلاء القـادة الأتـراك، في هـذا الجانـب من أريحا، وقتـل خمسـة آلاف منهـم، وجعـل البقيـة يفرون وهـم مجللين بالعـار، وفي السنة الخامسـة عشرة من حكمـه قاتل هـذا الملك نور الديـن، أمير دمشق، وبقي سيداً للمعـركة، في حين هرب نـور الدين مـع بعض قواته، بينما تعـرض البقية للقتل، وقـد حكم لمدة أربعة وعشريـن عاماً، ومات بـدون أولاد، وقد خلفه أخـوه عموري، وحـارب عمـوري في السنـة الأولى مـن حكمـه ضرغـام، أمير الجيـوش المصرية، في أرض مصر، ونـال النصر بشكل عجـائبي ، بعـدما قتـل من الأعداء أعـدادا كبيرة ، وقاتـل في السنة الثـانية في قفـار مصر، وهو على رأس ثلاثمائة وسبعين فـارساً، ضـد شيركوه ، الـذي كان القـائد الرئيسي لـدى سلطان دمشـق، وكان في جيـش شيركـوه هذا اثنـي عشر ألفاً مـن الأتراك ، وأحـد عشر ألفاً من العـرب، ولقد غـادروا ، عندما قتـل مائة من رجالنا، ولقد قيل بأن ألفـاً من الأعداد قد هلكوا، ولقد حكم لمدة

اثني عشر عاماً، وعندما مات خلفه ابنه بلدوين على العرش، ولقد قدرت عليه السماء الإصابة بمرض الجذام، ومع هذا كان ملكاً قديراً، وفي السنة الثالثة من حكمه، التقى بصلاح الدين قرب عسقلان، وكان معه ثلاثمائة وخمسة وسبعين فارساً، بينما كان مع صلاح الدين ستة وعشرين الف فارس، وقد ألحق الهزيمة به، وهرب صلاح الدين مع بعض رجاله، أما البقية فقد قتلوا أو وقعوابالأسر، وفقط أربعة أو خمسة من رجالنا — كما قيل — قتلوا. وتواجه مع صلاح الدين في معركة أخرى قرب طبرية، وقد هزمه، وكان معه سبعمائة فارس، في حين قيل كان مع صلاح الدين عشرين ألف فارس، وقتل بلدوين ألفاً من الأعداء، ومات من جانبنا عدد ضئيل فقط، ولم يكن بإمكان هذا الملك الزواج بسبب مرضه، وقام بتزويج أختيه: سيبيلا وكانت الكبرى، وايزابيلا، وكانت الصغرى، من اثنين من النبلاء: وأعطى سيبيلا الى وليم صاحب السيف الطويل، مركيز مونتفرات، وايزابيلا الى همفري صاحب تيرون (تبنين)، وعندما توفي وليم المتقدم الذكر، خلف طفلاً صغيراً اسمه بلدوين، وقد زوج الملك أخته المتقدمة الذكر من شاب من بواتو اسمه غي لوزغنان، وبسبب إزدياد مرضه وإثقاله له ، سلم ادارة المملكة كلها اليه، لكن بعد أمد أغضب غي الملك، وهكذا فقد الاشراف على المملكة ، ثم دعا الملك الى الاجتماع أعيان المملكة، وجعل ابن اخته بلدوين يرسم ملكاً، وعهد ببلدوين وبالاشراف على المملكة والدفاع عنها الى كونت طرابلس، وبعد مدة وجيزة غادر الملك بلدوين المجذوم هذه الحياة، وكان الملك بلدوين الصغير قد مات أيضاً واعتلى غي العرش، من خلال مساعي زوجته سيبيلا، وبموجب حقها بالوراثة، وذلك دون أخذ موافقة كونت طرابلس، الذي كان الوصي على المملكة كلها، وبناء عليه كان الكونت ساخطاً جداً، لا سيما وأنه كان يحدث نفسه بالوصول الى العرش ، ولهذا عقد هدنة مع صلاح الدين، دون موافقة الملك ، الذي بات عدوه اللدود، ولكي يزيد من

قوته في المملكة، حتى يتمكن من مقاومة الملك، ومن أجل امتلاك الوسائل لإثارة النزاع، تزوج من الوارثة لطبرية وجميع الجليل، ومن هنا برز خطر عظيم وخلاف مدمر في المملكة ، حيث وقف بعضهم الى جانب الكونت ، وبعضهم الآخر الى جانب الملك .

الفصل الرابع والتسعون

كان صلاح الدين رجلاً عاقلاً، عارفاً بتجارب الحرب وقدأدرك من خلال الخبرة أن المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها الصمود ، وأن بإمكان الخلاف أن يدخل بسهولة من خلال ثغرةعظيمة، واستغل بشكل خاص الفرصة، بسبب أن (أرناط) صاحب الكرك قد خرق الهدنة التي عقدها شعبنا مع المسلمين، واستولى على الكثير من الأسلاب، وقد حشد حشداً عظيماً من المحاربين من جميع البلدان الواقعة تحت حكمه ، واستدعى كل من الفرسان والرجالة من مصر، ومن العربية ، ومن دمشق، ومن حلب، ومن الجزيرة، للقتال ضدنا ، وبعث أمامه عشرة آلاف من نخبة فرسانه، الذين عبروا خلال أراضي بلاد طبرية والناصرة حتى حدود عكا، وذلك أنهم أرادوا — حسب عادتهم— اثارة معركة مع شعبنا بغاية استدراجه وجعله يلاحقهم باندفاع وبدون نظام، ومن ثم الاطاحة برجالنا أو أخذهم أسرى، ولم تنطل خديعة المسلمين هذه علينا ، وأخفقوا في تحقيقها، لكن اندفع نحوهم المقدم الأعلى لفرسان الداوية ومعه أكثر من سبعمائة فارس، وذلك مع المقدم الأعلى لفرسان الاسبتارية، الذي كان عائداً مع عشرة من الفرسان من قلعته كوكب الهوا، وقد كانوا قد فصلوا بوساطتهم عنهم قرب قلعة كفركنا (روبرتي)، ومع أنه كان برفقتهما مائة وعشرين فارساً فقط وقفوا في وجه عشرة آلاف من المسلمين، فإنهم قاوموا برجولة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، لكنهم أنفسهم إما قتلوا أو أخذوا أسرى، ونجا المقدم

الأعلى للداوية مع عدد قليل من الأتباع، وقد قتل المقدم الأعلى للاسبتارية، وهكذا نال العدو في اليوم الأول من أيار نصراً دموياً على شعبنا، وقام المسلمون، الذين تشجعوا بهذا، فحشدوا جميع قواهم، وقاموا في حزيران التالي بحصار أقصى مدينة في مملكتنا باتجاه دمشق، وأعني بهذا مدينة طبرية، لأن كونت طرابلس، التي عادت المدينة بملكيتها إليه، قد انسحب من التعامل مع المسلمين عندما خرقت الهدنة، لأنه قد قيل له بأنه كان حليفاً للمسلمين، وأنه جلب شروراً كثيرة ضد الملك وضد المملكة، وبناء عليه تولى تحصين المدينة المتقدمة الذكر ضد المسلمين، وترك زوجته فيها مع حامية من الجند. وقام الآن اللورد غي، ملك القدس، وريموند كونت طرابلس مع جميع نبلاء المملكة وكل الفرسان والرجالة الذين كان بإمكانهم حشدهم، قاموا في ساعة نحس، وقد حرموا من مساعدة السماء، وتوجهوا نحو قتال صلاح الدين وقومه، ونصبوا خيمهم قرب نبع الصفورية، ووثقوا بأعدادهم الكبيرة واعتمدوا عليها أكثر من اعتمادهم على المعونة السماوية، لأنه منذ دخول شعبنا الأول إلى الأرض المقدسة لم يكونوا قط قادرين على حشد مثلما حشدوه الآن من جنود للقتال في معركة واحدة، وقد قيل كان معهم اثني عشر مائة من الفرسان الدارعين وحوالي العشرين ألفاً من الرجالة المسلحين بالسيوف والقسي، والقسي العقارة ، فهؤلاء جميعاً شاركوا في هذه الحملة التعيسة، وفي اليوم التالي عندما كان جيشنا يزحف باتجاه المدينة المحاصرة، هاجمه حشد من فرسان جيش صلاح الدين الخفاف بشكل شرس جداً من على اليمين ومن على اليسار،وضاعفوا الجراحات التي أصيب بها كل من الخيول والفرسان حتى أرغموا الجيش على العسكرة ونصب خيامه في بقعة جافة ليس فيها ماء،وراقب صلاح الدين بحكمة هذا كله،وواجه جيشنا في اليوم التالي قبل أن يستطيع الوصول الى الماء،وكانت المواجهة في حطين،على مقربة من ترعان،وانقض بقواته المعبأة بصفوف وفق النظام العسكري،على

عساكرنا،الذين كاد الفرسان فيهم والخيول يهلكون عطشاً،وكان اليوم آنذاك حاراً جداً،لأن المعركة كانت في شهر تموز في اليوم الرابع منه،وهو يوم عيد انتقال القديس مارتن،وذلك في عام ألف ومائة وثمانية وسبعين لتجسيد الرب،ولذنوبهم الكثيرة ألقى الرب الشعب المسيحي في أيدي المسلمين،لأن شعبنا فرّ لدى تلقيه الصدمة،وكان أفراده كلهم من الكبير الى الصغير إما أن قتلوا أو وقعوا أسرى، وجللهم الرب بالعار، مع الرعب والجبن، وبات الآن دور كل واحد من الأعداء ليقوم بمطاردة مائة من رجالنا، وقد رمى بعضهم بأسلحتهم، وألقوا بأيديهم واستسلموا عن طواعية الى أيدي المسلمين، وبعد مقتله كبيرة اقتيد غي دي لوزغنان مع المقدم الأعلى للداوية وأعداد أخرى كبيرة من ذوي المراتب العليا،اقتيدوا أسرى، وكانوا قد فروا بشكل جبان من أمام مطارديهم، ولهم أن يعرفوا بعلامة مؤكدة،وبرهان واضح، أن الرب كان غاضباً عظيم الغضب منهم، وأن ستر وقايته الربانية قد سحب عنهم،ولقد واجهوا حظاً عاثراً في ذلك اليوم الأسود بفقدانهم خشبة صليب انقاذنا،الذي كانوا قد حملوه معهم الى المعركة، وارتأى صلاح الدين أن يقوم بتدمير كلي لرهبنتي الداوية والاسبتارية في الشرق،لذلك أصدر الأوامر بقطع رأس كل واحد منهم يقع في أيدي رجاله.

الفصل الخامس والتسعون

بعد مضي وقت طويل على هذه الكارثة، بذل عدد كبير من المسيحيين جهودهم للنجاة،وغدا الذين بقيوا في المدن وفي الأماكن الحصينة جبناء مثل النساء وانقبضت قلوبهم، ولهذا لم يتجرأ العديد منهم على انتظار الهجوم من قبل أعداد قليلة من المسلمين،وهكذا،إثر الانتصار المتقدم الذكر،وصل صلاح الدين الى أمام عكا،فاستسلموا إليه على شرط الإبقاء على حياتهم،وزحف من هناك الى بيروت،واستسلمت

تلك المدينة اليه بدون أدنى مقاومة من قبل سكانها القانطين رعباً،وكذلك حصل على جبيل بدون صعوبة، ولم تتجرأ مدينة من المدن القائمة على الساحل من عكا الى عسقلان على مقاومته،هذا وقام شعب قيسارية الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاتزام بإيقاف تقدمه لبعض الوقت،وأجابوا أنهم لن يستسلموا حتى يعلموا هل شعب القدس سيبقى صامداً أم سيستسلم، وعندما نصب خيامه أمام القدس،تخلوا عن المدينة إليه على شرط أن يخرجوا منها أحراراً، وأن يحملوا من مقتنياتهم ما يمكنهم حمله،وأن تجري مرافقتهم الى أرض يأمنون فيها،وهكذا نجوا من أيدي الأعداء، لكنهم عندما وصلوا الى طرابلس وقعوا في أيدي أعظم سوءاً،وهي أيدي آثمة مدنسة،فكل ما جلبوه معهم أخذه بأكمله وانتزعه منهم بوهيموند كونت طرابلس،مع أبناء الشيطان من أتباعه، الذين كان من المتوجب عليهم اظهار الرحمة نحو اخوانهم المنفيين،غير أنهم برهنوا أنهم أكثر وحشية تجاه المسيحيين من المسلمين،ولقد قيل فعلت هناك أفاعيل خسيسة لم يسمع بمثلها في القرون الخالية،فقد كانت هناك أم تحمل على كتفها طفل صغير لها،فسلبت من قبل هؤلاء الأعداء الأشرار، ذلك أنهم لم يوفروا أحداً لامنصبه ولا لجنسه(رجلاً كان أم امرأة)،ولم يتحلوا لابالحياء ولا بالخجل اثنار سلبهم،وعندما رأت هذه المرأة أن مقنياتها التي تركها لها المسلمون،للحفاظ على نفسها وعلى طفلها،قد أخذت منها وانتزعها الذين فرت إليهم للالتجاء، تحولت الى حالة من اليأس والألم والهياج والقنوط،الى حد أنها قذفت بولدها الى البحر.

وعاد صلاح الدين الى عسقلان،واستسلمت المدينة اليه على شرط أن يطلق سراح الملك والمقدم الأعلى للداوية،اللذان كانا مسجونين لديه،ثم تابع زحفه كعسكري نشيط وفعال الى طرابلس حيث وجد سكان المدينة مع اللاجئين جاهزين لمقاومته، ولاعتقاده أن هذه المدينة لن تنجو منه

إذا ما عاد إليها في وقت آخر مناسب،بعد احتلاله لبقية الأماكن الحصينة، زحف نحو أنطاكية،لأنه في ذلك الوقت لم يكن مهتماً بشغل وقته كثيراً مع القلاع القائمة على شاطىء البحر،ذلك أن زعيم القراصنة واسمه«مرجريت» وكان رجلاً واسع النفوذ في البحر،قدم من مملكة صقلية مع ثمانين من الغلايين لمساعدة شعبنا، حيث أنه أرسل من قبل الملك الشجاع والشهير وليم صاحب صقلية،فعندما سمع هذا الملك بالسقوط المحزن لمملكة القدس، من الذين هربوا بوساطة البحر والتجأوا الى بلاده،بادر على الفور في ذلك الصيف، ولم يكتف بارسال الغلايين المتقدمة الذكر،بل بعث بخمسمائة من الجنود،وثلاثمائة من التوركبلي،وكميات هائلة من المؤن لمساعدة المتبقي من البلاد،وللأناس الطيبين والذين يخشون الرب.

ودفعت روح صلاح الدين اللجوجة به للقيام بمتابعة نجاحاته بكل نشاط، فاستطاع خلال ثلاثة أشهر أن ينال إمارة أنطاكية كلها باستثناء قلعة بطريرك أنطاكية التي كانت لاترام واسمها قورس Cursatus ، ومدينة أنطاكية نفسها، التي رفع الحصار عنها لدى تسلمه مبلغاً كبيراً من المال من البطريرك، مع القناعة والتأكد أنه بعد الاستيلاء على الأماكن الحصينة المنتشرة هناك، فإن مدينة واحدة لن يكون بإمكانها مقاومته، لأنه جعل نفسه سيداً لأكثر من خمس وعشرين مدينة وبلدة في تلك الإمارة، ولهذا عاد إلى مملكة القدس، وقام مستخدماً جيشه بأكمله، فحاصر مدينة صور براً وبحراً، وهي المدينة الوحيدة التي تركت بين مدن الأرض المقدسة، وكان في صور آنذاك نبيلاً شجاعاً هو كونراد مركيز مونتفرات، الذي أبحر إلى هناك على ظهر سفينة من القسطنطينية، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي أطيح به بشعبنا في المعركة المتقدمة الذكر، ووعد هذا الرجل سكان المدينة أنه سيتولى الدفاع عن المدينة إذا وعدوا بتسليمه إياها إذا تولى حفظها من العدو، ووافق سكان المدينة

متطوعين وشاكرين على فعل ذلك،لأنهم كانوا قانطين،ولم يعتقدوا أنه كان من الممكن لهم الصمود في وجه جبروت صلاح الدين،الذي جعل الآن من نفسه سيداً لجميع البلاد،وقاوم كونراد صلاح الدين برجولة من جانب البر،وألقى النار في غلاييه في البحر،ولهذا قام وهو غاضب ومضطرب برفع الحصار والمغادرة على الفور، وكان قد فكر بتضييق الحصار على سكان صور،وارغامهم على الاستسلام دونما تكاليف كبيرة وخسائر،وبدون سفك لأي من الدماء، وكان من الممكن له أن يحقق هذا بسهولة لولا أن الرب أمدّ بالعكس، لأن صلاح الدين كان قد أرغم قلاعاً قوية مثل: صفد، وكوكب الهوا، وتبنين، والشقيف في الجبال، على الاستسلام، وعلى كل حال كان بإمكان هذه القلاع المقاومة طيلة الوقت الذي توفر فيها المؤن، وكيف كان بالحقيقة لعدد قليل من الرجال المرعوبين والذين بلا عون الصمود من دون هذا الأمير الشجاع، في وجه الذي جعل من نفسه سيداً، ليس فقط لأرض مصر بل لكل سورية تقريباً، أي من نهر الدجلة حتى مصر، ومن قليقيا حتى البحر الأحمر.

الفصل السادس والتسعون

يدعى القسم الأول من سورية، القائم بين نهري الفرات والدجلة باسم الجزيرة السورية، ويدعى القسم الآخر باسم سورية المجوفة، ويقوم في هذا الجزء مدينة أنطاكية، مع المدن الخاضعة لها، وهي تصل حتى نهر بانياس تحت قلعة المرقب، ويدعى القسم الثالث من سورية باسم سورية الساحلية أو سورية الفينيقية، وفيه يقع مدن: طرابلس، وصور، وعكا، وهو يبدأ عند النهر المتقدم الذكر، وينتهي عند lapis In-cis التي تعرف باسم عثليت Districtum ، واسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج، ويدعى القسم الرابع باسم سورية اللبنانية، حيث يقوم جبل لبنان، وكذلك يعرف باسم سورية دمشق، لأن دمشق هي

العاصمة، ويعرف أحيانا بكل بساطة باسم سورية، ذلك أن الجزء قد يأخذ اسم الكل، حسبما في جاء القول: «رأس آرام— سورية— دمشق» (اشعيا: ٧/ ٨)، وهناك ثلاث فلسطينيات، التي هي جزء من سورية الكبرى وعاصمة الجزء الأول القدس، ويدعى هذا الجزء بشكل خاص باسم «اليهودية»، والجزء الثاني هو الذي عاصمته قيسارية فيليب (اقرا: فلسطين)، والقسم الثالث هو الذي عاصمته سكيثوبولس، التي تعرف في هذه الأيام باسم بيسان، زد على هذا إن كل من العربيتين جزء من سورية: والجزء الأول هو الذي عاصمته بصرى، والجزء الثاني هو الذي عاصمته البتراء في القفار، هذا وإن سورية سوبال Sobal ، (النقب) التي عاصمتها سوبال هي جزء من سورية الكبرى، والجزء الأخير من سورية هو أدوم، المتجهة نحو مصر، وهكذا فالعدو بهذه العظمة والقوة، ذلك أنه يسيطر على مثل هذا العدد من الممالك؛ وعدد كبير من الرؤوس الهمجية، أقامها الرب ضدنا، كما هو الحال الآن، لتكون سوط انتقام الرب بسبب آثامنا.

الفصل السابع والتسعون

وهكذا هزت مصائبنا المؤسفة، والأخبار المحزنة لما حل بنا، جميع بلدان الغرب، ولقد ارتاع كل من سمع بما حدث، وأصيب الناس بجراح محزنة، وتقدم هؤلاء وتصدرهم أوربان الأب المبجل، الذي كان آنذاك بابا الكنيسة الرومانية المقدسة، فعندما سمع بالأخبار استولى عليه حزن لاعزاء له، لأن الكنيسة الشرقية قد تعرضت للدمار بشكل مؤسف، وباتت مشعثة بشكل لايمكن ترميمها فيه، وعندما علم بأن الأماكن المقدسة قد تدنست، وديست من قبل كلاب غير نظيفة، وأن خشبة الصليب الثمينة، صليب خلاصنا قد استولى عليها وتداولها أناس غير أتقياء وغير جديرين بالاحترام، وأن الأرض المقدسة — التي سلف

وحررت لقاء سفك الكثير من الدماء المسيحية — قد احتلت ثانية من قبل القوم الكفار والمدنسين، أثر به الحزن وأزعجه كثيراً إلى درجة أنه وقع مريضاً مصاباً بالحمى، ولم يمض وقت طويل حتى مات، بسبب الحمى، وبسبب الحزن، وبسبب الضعف، وكان خليفته على العرش البابوي غريغوري (الثامن ٢٩ت١ — ١٧ك١ ١١٨٧)، وكان رجلاً جيداً، وجديراً بالقبول التام، لكن لذنوبنا توفي بعد سبعة أشهر، وجاء بعده كليمنت الثالث (١٩ك١ ١١٨٧— ٢٧آذار ١١٩١)، الذي رفع إلى أعلى مقام لاهوتي، وقد عمل مع أخوانه الكرادلة في جميع السبل الممكنة للحفاظ على المسيحيين الذين تركوا في أعداد قليلة، بمثابة شياه وسط ذئاب، ولقد دعا أمراء الغرب وهددهم وناشدهم،وكذلك جميع الشعب المسيحي المؤمن، للقيام بتحرير الأرض المقدسة، ومنحهم غفراناً تاماً من جميع ذنوبهم، وذلك بالإضافة إلى أنهم سينالون التأييد من السماء، وحثهم على عدم التأخر في القدوم لإنقاذ كنيسة المسيح ومدينة خلاصنا، وبناء عليه حدث أن قام: فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية، وفيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا،، مع جميع الأمراء تقريباً والدوقات، والإيرلات، والنبلاء في ممالكهم، وبرفقة رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، وبقية الشخصيات اللاهوتية، والناس من الأنواع المنحطة، وكانوا أكثر من أن يستطيع انسان تعدادهم، هؤلاء جميعاً قاموا فوضعوا على أكتافهم رباط الصليب المانح للحياة، وأعطوا عهداً مقدساً أكيداً بالحفاظ على الأرض المقدسة، وشجع أحدهم الآخر بالكلام وبالفعل بضرب المثل بنفسه وبإلهاب الحماس لدى الآخرين، حتى بدا من العار ومن المهانة بالنسبة لهم البقاء في الوطن مثل الكسالى والجبناء في حين كان الآخرون ذاهبون لأداء صليبيتهم.

الفصل الثامن والتسعون

وكان الملك غـي في الصيف الذي أعقب فقـدان الأرض المقدسة غير قادر على استرداد صور، لان المركيز المتقدم الذكـر قد تولى الحفاظ عليها، وادعى ملكيتهـا بموجب الاتفـاق الذي عقـده (مع أهلها)، ومـن جميع المملكـة التي كـانت بحـوزته لم يبـق لغي ولا حتـى مقدار قـرية واحـدة يتخـذها مقـراً له، وكـان ممتلئا بـالشعور بـالعار وبـالفوضـى، لاسيما وأن الأرض المقدسـة قد ضاعت أثنـاء حكمه، وبما أنه لم يعـرف الاستقرار في حياته، قام مع عدد صغير جداً من الأتباع تولى حشدهم، بإلقاء الحصار على عكـا، ونصب خيمتـه على هضبة مـرتفعـة قرب المدينـة، وكان معـه أخوه غيـوفري دي لوزغنـان، وكان رجلاً شجاعـاً ومقداماً، وقـد استطاع بفضل أخيـه أن يصبح المقـدم على جميع الحجاج الآخـرين، ويحكـى أنه عنـدما سمـع صلاح الـدين بهذا حمد اللـه لإيقاعـه بقية الصليبيين مـع ملكهم بين يديه، وفي الحقيقة لم يكن بإمكان مثل هذا العدد الضئيل من الـرجـال أن يصمد في وجـه سكـان عكـا، فكيـف أمـام صلاح الـديـن وحشوده التـي لاتعد ولاتحصى، وعنـدما طلـب منه أمراؤه الاسراع بـأخذ الجائزة التي وضعها اللـه على طريقه، يحكى أنه أجابهم، بـأنهم لن يفلتوا منه، وأنه يرغب في انتظار وصول أخيه— الـذي كان متوقعاً وصوله قريباً — ليشارك في متعة النصر، لكنـه علم من خلال التجربـة بعد مضي عدة أيام أن التأخير والتقاعس عن العمـل سوف يسبب الضرر، ذلك أن أحد النبلاء، وكـان من عبيد الرب المجـربين جداً اسمه جيمس أوفـرين Au-vergne ، جـاء وقـت الحاجـة، وعسكـر أمـام عكـا ومعـه قـوة مـن الفلمنكيين، والبرابـانتيين والفريـزيين، فضـلاً عن هـذا لم يمـض طويـل وقت حتـى وصل حشـد من النبلاء مـع آخريـن من شـامبين وبيرغندي وبعض الناس مـن إيطاليا، وعسكروا أمـام المدينة السالفة الـذكر، ولكي

يتجنبوا هجمات غير متوقعة ومفاجئة من قبل المسلمين حصنوا معسكرهم بخندق امتد على جميع الجوانب، وتحتاج المسألة إلى وقت طويل للحديث عن المآسي والمصاعب والمخاطر والخسائر التي عانوا منها قبل قدوم ملكي فرنسا وانكلترا، لأن المسلمين غالباً ما أحرقوا أدوات حصارهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأصابوا الكثيرين منهم بجراحات مميتة بوساطة النشاب والحراب، في حين مات كثير منهم على الرمل أمام المدينة من الجوع، ومن الإعياء، وبالوباء، والآن وقد رأى رجال شعبنا أنه ليس من السهل عليهم الاستيلاء على المدينة، وأن صلاح الدين مع جيشه يناوشهم دوماً حول خندق معسكرهم، قرروا في أحد الأيام الزحف والخروج من معسكرهم لقتال العدو، ومع أن المسلمين كانوا كثرة متفوقة بالعدد على شعبنا، لم يتجرأوا على انتظار هجوم رجالنا، وهربوا تاركيين معسكرهم خلفهم، وعندما وصل شعبنا إلى معسكر المسلمين بدون مقاومة، خافوا واستبدبهم الرعب، وكأنما كان ذلك صادر عن حكم سري من الرب، فهربوا، مع أن ما من انسان طاردهم.

وعندما رأى المسلمون هذا استردوا ثقتهم بأنفسهم وجرأتهم، وعادوا يطاردون شعبنا، وبدأوا في عقر الخيول وجراحة الفرسان بوساطة موجات متواصلة من السهام المتطايرة، وتمكن المسلمون من تطويقنا بفضل عددهم، وقتلوا عدداً لابأس به من نبلائنا الكبار، الذين ثبتوا في مواقعهم، ورأوا من العيب والعار إدارة ظهورهم، وكان بين هؤلاء المقدم الأعلى للداوية، وأندرو دي بريين، اللذان قتلا في هذا اليوم مع آخرين كثر، وكان الخوف الذي استبد بشعبنا هائلاً، وكذلك الفوضى، وكان الذي أصاب رجالنا أثناء فرارهم من رعب كبيراً جداً، ووصل الأمر إلى حد أنه ما كان بإمكان واحد من الذين زحفوا النجاة، لولا قيام غيوفري دي لوزغنان، الرجل الشجاع، والجندي المجرب، السالف الذكر— الذي

بقي في المعسكر لحراسته — بالمبادرة لتقديم العون إلى شعبنا مع ما قدر على جمعه من الرجال.

ويحكى أن شعبنا دبت بين صفوفه الفوضى في ذلك اليوم بسبب حادث غريب، فقد شرد فرس من صاحبه وهرب، وعندما ركض عدد كبير خلفه وهم يصرخون، اعتقد الآخرون أن رجال شعبنا كانوا يفرون من أمام العدو، وهكذا فر الجميع واتخذوا طريقهم نحو المعسكر إلى خيمهم، أو لنقل إلى عارهم العظيم وإلى إلحاقهم الأذى العظيم بقضية المسيحيين.

وبعدما انتظر شعبنا في أرض المعركة لمدة سنة ونصف السنة وصول الامبراطور والأمراء الآخرين الذين كانوا سيتبعونهم، عانى أفراده من مجاعة شديدة وندرة في الأطعمة داخل المعسكر وصلت إلى حد إرغامهم على أكل لحوم الخيول وأجساد الحيوانات الميتة، لأن مكيال (بوشل) الدقيق الواحد الذي كان يباع في الأوقات العادية بنصف قطعة نقدية (بيزنت) بيع وقتذاك بستين قطعة، وبناء عليه أعلن الجنود الرجالة في الجيش أنهم لايمكنهم الاستمرار بتحمل مثل هذا العوز، فانطلق منهم ثلاثون ألفاً في عددهم ضد أوامر قادتهم، بغية مهاجمة المسلمين، ونهب الأطعمة من معسكرهم، وتظاهر العدو الماكر بالفرار، وجعل هؤلاء الناس الطائشين يثقلون أنفسهم ليس فقط بالأطعمة، بل أيضاً بالذهب وبالفضة وبالأثاث من مختلف الأنواع، وعندما كانوا في طريق عودتهم مثقلين هكذا، ومعاقين بالأوزان الثقيلة تحولت قيثارتهم إلى النحيب والمناحة (يعقوب: ٣٠/ ٣١ — الأمثال: ١٤/ ١٣)، وكانت نهاية هذا المرح التعاسة: لأن المسلمين حملوا عليهم بأصوات عالية، ولم يوجد بينهم واحد كان قادراً على مقاومة الأعداء، فلقد ألقوا بأثقالهم وتخلوا ليس فقط عن الذهب والفضة، بل حتى عن سلاحهم، وسقط تقريباً كلهم على الطريق أو سيقوا إلى داخل البحر وغرقوا، وأصيب بعض

الذين نجوا منهم لرعبهم بالجنون، وهكذا جعل الرب تذمرهم وعدم طاعتهم سبباً لعقابهم، وفي تلك الأثناء توفيت سيبيلا زوجة الملك السالف الذكر، في داخل المعسكر، وهكذا آل التاج بموجب حق الوراثة إلى أختها ايزابيلا، زوجة همفري أوف تيرون (تبنين)، ويحكى أنه عندما سمع بهذا مركيز مونتفرات، الذي كان قد جعل من نفسه سيداً لصور، استبدت به مطامحه السلطوية والرغبة في العرش، فانتزع ايزابيلا المتقدمة الذكر من زوجها، وتزوجها على الفور، ومهما يكن الحال، كان الحجاج غير راضين ومزعوجين كثيراً تجاه مثل هذه الجريمة العظيمة، ومع هذا، لقد رفضوا طلب الكونت المتقدم الذكر، وصرفوه بأعذار، عندما سألهم الإنصاف ورفع الغبن عنه، لأنه لم يكن بإمكانهم الحصول على الطعام من أي مكان غير صور، وذلك عبر يدي المركيز السالف الذكر، فضلاً عن هذا لقد رشا بعضا من مقدمي الجيش لدعم قضيته.

الفصل التاسع والتسعون

بينما كانت هذه الأقدار المتغيرة هي حال الذين كانوا على أرض المعركة، انطلق فردريك، امبراطور الرومان، وشرع برحلته عبر البر ومعه قدرات عظيمة، وحشد من المقاتلين لايحصى تعداده، وبعد ما عبر حدود ألمانيا، اجتاز هنغاريا، ومكدونيا، وبلاد الاغريق، وزحف خلال بلاد المسلمين بقوة وجبروت وسيطرة، واستولى على قونية ثم فيلومينا، (إلغين) ومدناً أخرى كثيرة، ووصل إلى أرمينية (كليكيا)، ونزل وسط حر عظيم إلى نهر يدعوه السكان المحليون باسم (نهر الحديد) «النهر الأزرق»، وكان يريد الاستحمام، لكنه غرق بشكل مأساوي، بسبب ذنوبنا، ومات مما شكل خسارة عظيمة لجميع المسيحيين، وخشي صلاح الدين كثيراً من وصوله لهذا أمر بهدم أسوار: اللاذقية، وجبلة ، وطرطوس، وجبيل، وبيروت، وأبقى الحصون فقط أي القلاع والأبراج.

والآن بعد ما أمضى كل من فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد، ملك انكلترا الشتاء في برنديزي، بإنتظار إلتحاق ساقة جيشهما بهما، بعد هذا أبحرا إلى ميناء عكا، وكان ذلك في الربيع الذي جاء إثر ذلك الشتاء، وكان معهما سفن وغلايين، وخيول كثيرة، وآلات حرب، ومخزونات من المؤن، وقد جعلا جيش شعبنا يمتلىء بسرور هائل. وكان أولهما بالقدوم ملك فرنسا، لأن رتشارد، ملك انكلترا، قام قبيل وصوله، بالاستيلاء على جزيرة قبرص، وأطاح بالاغريق الذين كانوا هناك.

وقاموا الآن بإلقاء الحصار على عكا، وطوقوها من جميع الجهات، وهاجموها بشكل متواصل خلال الصيف كله، في حين قاوم الذين كانوا بداخلها برجولة، وكانت آلاتهم مكافئة لآلاتنا، وأحرقوا بالنار الاغريقية القلاع الخشبية التي بناها شعبنا مقابل نفقات عالية، وألحقوا بشعبنا الكثير من الأضرار، لكن حدث في أحد الأيام، أن صلاح الدين كان مرسلاً بنجدات من الرجال الجدد المسلحين إلى المدينة، ومعهم عتاد وسلاح ومؤن، على ظهر سفينة كبيرة جداً تدعى «درمون» فالتقى ملك انكلترا بهذه السفينة عند مدخل ميناء عكا، وكان معه غلاييه، ولقد أغرقها وأنزلها إلى قاع البحر مع جميع الجنود الذين كانوا فيها، مما بعث السرور العظيم وسط المسيحيين، وسبب اضطراباً بين المسلمين، وقد قيل إنها حملت بالاضافة إلى بقية حمولتها بعض الثعابين، كانوا عازمين على إرسالها ونشرها في جيشنا، وأعتقدوا أنهم بذلك سيلحقون بنا أذى عظيماً، وقصف فيليب ملك فرنسا أسوار المدينة، وأبراجها، ودفاعاتها بشكل متواصل في كل من الليل والنهار، بوساطة حجارة ضخمة، وبذلك دمر آلات العدو، مع أبنية في داخل المدينة، ولم يعط المحاصرين راحة، ومن جانب آخر قام ملك انكلترا بحملات متوالية مرعبة على المحاصرين، ونتيجة لهذا، أخذ السور يضعف ويترنح نتيجة القصف بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة

بالحجارة المستمر ضده، واقتنع سكان المدينة أنه لن يمكنهم متابعة المقاومة لمدة طويلة، لهذا قاموا بتسليم المدينة على شرط أن يتمكنوا من الزحف منها بحرية وبدون إعاقة ولا أذى، وتعهدوا أنهم سوف يسلمون صليب الصلبوت ويعيدونه وهو الذي خسره الصليبيون في المعركة، لكن بما أنهم لم يتمكنوا من العثور عليه، غضب ملك انكلترا غضباً عظيماً، وأمر بجعل الأسرى الذين هم في شطره من المدينة طعمة للسيف، لكن ملك فرنسا تعامل مع المسملين الذين كانوا في أسره بشكل أكثر لطفاً، وألقى بهم في السجن لمبادلتهم مع شعبنا، ومع هذا عمل ملك انكلترا المزيد من الأعمال لإيذاء العدو واضعافه بقتل عدة آلاف منه، الذين لو أنهم عاشوا لأمكنهم فيما بعد الحاق الكثير من الأذى بالصليبيين، وعندما رأى صلاح الدين أن المدينة قد جرى الاستيلاء عليها، وأن قسماً كبيراً من قواته قد دمر، شعر بالإحباط إلى حد كبير، وفقد الأمل بالقدرة على الدفاع عن المدن الأخرى ضدنا، ولهذا أمر بتدمير أسوار المدن القائمة على شاطىء البحر، وهي مدن: بروفيريا (قرب حيفا)، وقيسارية، ويافا، وعسقلان، وغزة، والدارون (دير البلح)، وأعاد الملك رتشارد بناء يافا وحصنها، وألقى بعد هذا صلاح الدين الحصار عليها، لكن الملك بادر الى هناك على متن غلايين بوساطة البحر، وتبعه جيشه بصعوبة كبيرة على الطرق البرية، وتمكن من انقاذ المحاصرين، وطرد حشد المسلمين، وارتعب المسلمون الآن كثيراً، وحلت بين صفوفهم الفوضى، وانهزموا مع أميرهم من أمام وجه شعبنا ، وبات الآن بإمكان شعبنا بسهولة ليس فقط نيل مملكة القدس، بل الأجزاء الكبرى من بلادهم، لولا أن عدو الجنس البشري، وأعني به الغيرة، حقق نجاحات كبيرة بين المسيحيين، وبذر الزوان بين الملكين، وكان هناك توتر شديد بين الأمراء، وسبب هذا تيههم في القفار حيث لم تكن هناك طرقات، وحاولت كل مجموعة أن تنال مجداً لنفسها ، وسعت وراء مصالحها، وليس وراء الأشياء العائدة ليسوع المسيح، وأدخلت إهاناتهم لبعضهم

بعضاً، وغيرة أحدهم من الأخر السرور الى قلوب أعدائهم، وأنزلت بين صفوف المسيحيين والمسيحية اضطراباً عظيماً، وكان الخلاف والحسد، والتباغض،وانعدام الوفاق بين الملكين قد وصل إلى حد، أنه عندما كان ملك فرنسا يقوم بالهجوم على واحد من جوانب المدينة، كان ملك انكلترا يرجع شعبه ويمنعه من الحملة، ويحول بينهم وبين معاناة الهجوم والقيام به على جانب آخر، فضلاً عن هذا ربح إلى جانبه أكبر عدد ممكن من الأمراء والبارونات بالهدايا وبالوعود، وجعلهم يقفون إلى جانبه، وانزعج ملك فرنسا كثيراً وتوجس شراً من كل هذا، ولأنه كان مريضاً، ذهب عائداً إلى بلاده مباشرة بعد الاستيلاء على عكا، وخلف من ورائه دوق بيرغندي مع جزء كبير من جيشه، لكنه لم يكن حكيماً في نشره أخبار عودته المبكرة إلى وطنه، فقد قيل: كان صلاح على استعداد للتخلي عن البلاد كلها لنا، لو أن الملكين تظاهرا بأنهما كانا على وئام بالنسبة لغزوها، وكانا متسالمين وعلى وفاق بين بعضهما بعضاً. وانطلق الآن ملك انكلترا مع جيشه، وبرفقته دوق بيرغندي، من عكا نحو يافا، وذلك بنية إلقاء الحصار على القدس، وواجهما وهما على الطريق عدداً كبيراً من المشاكل، لأن صلاح الدين لاحق القوات الزاحفة بعدد لايحصى من الجنود والتوركبلية مع مسلمين كانوا يطلقون النشاب عليها من الجانبين مثل السحب، ولهذا تمكن شعبنا بصعوبة بالغة جداً من الوصول إلى مدينة أرسوف، بين قيسارية ويافا، وذلك بعد عقرعدد كبير من الخيول، وإصابة فرسانها بجراحات خطيرة، وقد جرح الملك نفسه بنشابة أثناء ذلك الزحف، وقام عندما كان قرب القلعة المتقدمة الذكر بحملة عنيفة جداً على المسلمين، وأراد من ذلك دفعهم إلى الخلف، وتولى الضغط عليهم أثناء التراجع فقتل عدداً كبيراً منهم، لكن ذلك لم يكن بدون خسائر فادحة عانى منها الجيش المسيحي، لأنه في ذلك اليوم سقط الفارس النبيل، والمقاتل الشجاع جيمس أوف أو فرين مع عدد كبير من الآخرين الذين نالوا تاج الشهادة، وذلك أثناء قتالهم المسلمين

في مكان منعرل، لم يكن معروفاً من قبل شعبنا، وحمل صلاح الدين نفسه مع الفارين الى القدس وفي الوقت نفسه أقام شعبنا معسكره في مكان يدعى بيت نوبة بين يافا والقدس، على نية الزحف من هناك الى القدس لإلقاء الحصار عليها ، وفي هذا المكان وصلت أخبارالى الملك رتشارد تحدثت عن قافلة عظيمة قادمة الى جيش صلاح الدين من مصر، مع أعداد لا تحصى من البغال، والخيول، والجمال، محملة بالأطعمة والبضائع الأخرى،وشرع على الفور مبادراً لاعتراض سبيلها، وزحف خلال الليل، وعاد الى جيشه وقد جلب معه الكثير من الأسلاب، غير أنه كان قد ترك جيشه في حالة رعب عظيم، لأنه أخذ الجزء الأعظم من أتباعه معه، وخلف وراءه عدداً ضئيلاً مقارنة بقوات صلاح الدين، وبعد هذا عقد شعبنا مجلساً حربياً، قرروا فيه عدم القاء الحصار على القدس في الشتاء، ذلك أنهم رأوا أنهم لا يمتلكون بين القدس وعكا موقعاً حصيناً باستثناء يافا، وأنه لا يمكنهم جلب المؤن لإطعام الجيش من دون خطر عظيم واضح، ولهذا تخلوا عن مغامرتهم مع أن ذلك كان وسط بكاء الكثيرين، والحزن المرير للجزء الأعظم من الجيش، وفي الحقيقة قال كثير من الناس، وأناس عرفوا بشكل دقيق أوضاع المسلمين أن صلاح الدين لم يكن متوقعاً قدوم جيشنا، وأنه ما كان بإمكانه ايجاد أي انسان يفكر بأخذ موقف الدفاع في القدس، أو يتجرأ على البقاء فيها وتحمل الحصار هناك: ذلك أن المسلمين كانوا مرعوبين تجاه حادثة رجال جماعة عكا ، الذين لم يستطع صلاح الدين تقديم العون لهم، ولهذا عانوا إما من جعلهم طعمة للسيف ، أو من القائهم في السجن، مع أنه كان بإمكانه شراء حريتهم. وذهب ملك انكلترا الآن مع جيشه الى عسقلان، ولم يتوقف عن ترميم أسوارها، وذلك خلال الشتاء كله، مقابل جهد كبير ونفقات عالية ، فضلاً عن هذا قام بإعادة بناء بلدة الدارون الصغيرة، وبتحصينها، ورمم غزة ومنحها الى الداوية، الذين كانت ملكيتها عائدة اليهم من قبل ولقد منحهم اياها للاحتفاظ بها،

وحدث خلاف بين دوق بيرغندي والفرنسيون الـذين بقيوا معه من جهة وبين الانكليزمن جهـة أخرى، لذلك تـركوهم وذهبوا الى صـور، وأمضوا الشتاء هناك مع المركيـز، وعندما اجتمع الجيشان في الربيـع التالي في بيت نوبة للقيـام بحصار القدس، تبدل الملك رتشـاد وتغير الى انسان آخر، فقد قال إنـه يتوجب عليه بكل الـوسائل العودة الى بلاده ثانيـة، مدعياً أن أخاه جون يطمـح بالمملكة ويتطلع لـلاستيلاء عليها، وقد جعـل من نفسه سيداً لجزء من بـلاده، وكان من جانب آخر محقـاً في ريبته في ملك فرنسـا، الذي افترق عنه وهـو غاضب، ولقـد كان يخشى أن يقـوم الملك فيليب في أثناء غيابه بغزو دوقية نـورماندي بالقوة، ولدى سماع المسلمين بهذه الأخبـار امتلأوا بـالسرور، وتشجعـوا وكأنهم استفـاقـوا من سبـات عميق، بينما اضطـربت أحوال عنـاصر شعبنا وحـزنوا وفقدوا كـل أمل في استرداد المدينة المقدسة، ولقد بكـوا وانتحبوا بسبب أن خاتمة تضحياتهم قد بترت، ورأوا أن جهودهم قد بـدأت لكن لم تنته، وأنها وصلت الى لا شيء، ولـو أن ملـك انكلترا، قام قبيـل مغـادرتـه بـإخفاء نيتـه لبعـض الوقـت، لربما كان من الممكـن لنا الحصول على شروط أفضـل وسلام مشرف مع المسلمين، لكنه وهو الرجل العنيـد، كان على الرغم من تسببه بحدوث ضرر عظيم للمسيحيـة كلها ، متشوقاً ومتعجـلاً للمغادرة، ولهذا وافـق على الشروط التي عـرضهـا عليه صـلاح الديـن للهـدنة مهما كـان نوعهـا، ولم يثر أي اعتراض، كما لم يسبـب أية مصـاعب، وهكـذا قضت الشروط بارغام شعبنا على تخريب عسقلان، والـدارون وغزة، وقد تركوا لنا أمر الاحتفاظ بيـافا ، وببقية الساحل حتى عكـا، وبهذا أظهر المسلمون بشكل مـؤكد أنه عنـدما تكون أمـاكننا الحصينـة قد دُمرت، لـن نستطيع بعـد ذلك الـدفـاع عن المنطقـة السهليـة، وحمايتهـا ضدهـم، ولا سيما أيضاًبعـد ذهاب جيشنا وعودتـه الى الوطن، وكان بـالوقت نفسه مـركيز مونتفرات قـد قتل من قبل مسلمين كانـا تعمدا، وعملا لوقـت طويل في خـدمته في بيتـه، كما أن هنـري كـونت شـامبين كـان قـد تزوج مـن

ايزابيلا، أرملة كونراد، وذلك بناء على اقتراح ملك انكلترا، وقد بقي في الأرض المقدسة، وعندما كان ملك انكلترا في طريقه عائداً الى وطنه اعتقل وبات سجيناً في ألمانيا ، وقد احتفظ به الامبراطور حتى دفع فدية مقدارها مبلغ كبير من المال، وهكذا تمكن بعد صعوبة من الوصول الى انكلترا.

ومع أن الكونت هنري قد تزوج من الملكة وبات سيدًا لكل من عكا وصور، رفض أن يتوج ملكاً، لأنه كان مثل البقية متشوقاً للعودة الى الوطن ، ثم إنه بعدما أقام في الأرض لعدة سنوات، وعمل جميع الاستعدادات للعودة الى الوطن، سقط من احدى نوافذ بيته فوق حجارة الخندق العائد لمدينة عكا،فاندقت رقبته ومات، وقام الآن عموري ملك قبرص، الذي هو أخ لغي لوزغنان— وكان الآن متوفى— بالزواج من الملكة ايزابيلا، وهكذا تولى حكم وحكومة الأرض المقدسة خليفة للكونت السالف الذكر.

وكان المسلمون بعد مغادرة ملك انكلترا وبقية الحجاج، قادرون على الفور على اظهار مدى الرعب الذي أحاط بحال القلة المتبقية من المسيحيين مع بقاياهم في الأرض المقدسة وإيضاحه، لولا أن صلاح الدين قد مات، وبناء عليه انبعث الخلاف والتمزق فيما بينهم، الأمر الذي قاد الى خصام وحرب أهلية، مما كان له عظيم الفائدة بالنسبة للمسيحين، وانتزع أخو صلاح الدين من أبناء أخيه جميع ممالكهم باستثناء مملكة حلب فقط، وأثار بعمله هذا جميع المسلمين ضده، ولم يستطع شعبنا القيام بأي عمل ضده، كما أنه لم يتجرأ على محاولة ذلك: ولقد اعتقدوا أنه من الخير لهم العيش والحفاظ على امتلاكهم لأراضيهم الى جانب المسلمين في جميع الأحوال، مع أنهم تلقوا اهانات كثيرة من قبلهم، وكان بعض رجال المسلمين قد أبدوا استعدادهم لتسليمنا مدينة جبيل وحصنها مقابل رشوات تلقوها، وذلك بدون إعلام

السلطان، التي هي ملك له بحق الوراثة، وحدث مثل هذا مع مدينة بيروت وقلعتها، حيث تخلت عنها حاميتها المسلمة، فأعيدت الى المسيحية.

وأرسل الامبراطور الروماني هنري (السادس: ١١٩٠— ١١٩٧) حشداً من الألمان الى الأرض المقدسة، وأمر رجاله بخرق الهدنة، وبناء عليه ألقوا الحصار على حصن يدعى تبنين قرب صور، وكانت حامية القلعة على استعداد للاستسلام شرط الإبقاء على حياة أفرادها، لكن الألمان أجلوا استسلام المكان لليلة واحدة، معتقدين أنه لا القلعة ولا حاميتها يمكن لهم النجاة من بين أيديهم، لكن حدث في اليوم التالي أن تجمع حشد لا يحصى من المسلمين للقيام بالتفريج عن القلعة، وهكذا تراجع الألمان في فوضى، وعندما اقتربوا من بيروت فر المسلمون الذين كانوا باقين فيها ، برعب، وتركوا المدينة والقلعة لهم، لكن عندما سمعوا أن سيدهم وامبراطورهم هنري قد مات (في صقلية، وخلفه فردريك الثاني) لم يقوموا بأية أعمال أخرى وعادوا مسرعين الى وطنهم.

وفي ظل هذه الأوضاع تشجع بعض قومنا بحضورهم، فتولوا تحصين يافا ضد المسلمين، لكن تمكن المسلمون بعد ذلك في وقت قصير، وبدون الكثير من المتاعب من الاستيلاء على القلعة التي بنوها ، وسووها بالأرض، وأسرو جميع الذين وجدوهم فيها ، وبناء عليه أعيد تجديد الهدنة،الأمر الذي وافق عليه المسلمون برغبة، لأن جميع مملكة القدس تقريباً كانت في أيديهم، وكانوا ممزقين ، ومتخاصمين بشكل حاد فيما بينهم، ولم يعد قومنا تواقين أبداً لخرق الهدنة في أية مناسبة مهما كان نوعها، لإنجاز حصار أي موقع حصين، أو لإعادة بناء أية قلعة مهدمة، وهكذا عندما جاء بعد وقت قصير بعض النبلاء من شامبين ومقاطعات فرنسا الأخرى، ووصلوا بحراً ، رفض قومنا خرق الهدنة، وذهبوا إلى انطاكية لخدمة أميرها، الذي كان آنذاك في حالة حرب،

لكنهم وقعوا فيما بين طرابلس وأنطاكية في أسر المسلمين، الذين حملوهم الى حلب، ولقد قام قومنا بخرق الهدنة مرتين بعد مغادرة الألمان السالفي الذكر: مرة عندما جاء بعض النبلاء من فرنسا، وأعني بذلك سيمون دي مونتفورت— وهو من أصل نبيل، وكان رجلاً تقياً، وجندياً جيداً مع أخيه غي، وبعض الآخرين الذين كان منهم كونتسه فلاندرز، التي تبعت زوجها(بلدوين) الذي تم (سنة١٢٠٤) تتويجه امبراطوراً على القسطنطينية ، والمرة الثانية، إثر وفاة الملك عموري وزوجته، حيث جرى استدعاء جون، كونت بريينBrienne لتسلم عرش القدس، فعبر البحر، وتزوج من وارثة المملكة، ابنة المركيز كونراد والملكة ايزابيلا، لكنهما أنجزا القليل، أو بالحري لم يفعلا شيئاً مفيداً، لأنهما لم يلقيا الحصار على أي مكان حصين، ولم يرمما أية قلعة مهدمة ، وكل ما فعلاه اقتصر على الدخول الى الأراضي الاسلامية وإحراق عدد قليل من القرى والاستيلاء على بعض الأسلاب.

وإثر تتويج جون المتقدم الذكر، وتعميده ملكاً قام المسلمون بتحصين جبل الطور ضدنا،وذلك من أجل إهانة المسيحية وإلحاق الضرر بها ، وأكثر من هذا بغية تضييق الخناق على مدينة عكا، وجدد رجال شعبنا هدنتهم مع المسلمين، وعاشوا في ظل الحزن والنحيب، مع كثير من المآسي والمظالم ، وطلبوا العون من عليين يوماً إثر يوم، وانتظروا الغفران والمدد من الرب، ومن الكنيسة الرومانية المقدسة .

هنا انتهى تاريخ القدس